حاكميّة القرآن

أ .د .طه جابر العلواني

طبعة المعهد ١٩٩٦م

المحتويات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونصلي ونسلم على سيدنا مُحَمَّد خاتم رسل الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهدتى بهداه إلى يوم الدين، وبعد؛

إن هذه الدراسة لن تقف طويلا عند تحليل الجوانب اللغويّة والاصطلاحيّة لمفهوم «**الحاكميّة**» لأنّ المفاهيم تختلف عن المصطلحات ففي حالة دراسة مصطلح من المصطلحات قد يكفي الباحث أن يقوم بتحديد جذر المصطلح اللّغويّ والإلمام بمعانيه اللغويّة ثم الانطلاق نحو استخدامات أهل الاصطلاح له في جوانبه المختلفة بمعانيه اللغويّة والخروج بتصور بعد ذلك للمصطلح وما يعنيه وما يدل عليه، ويمكن للباحثين -بعد ذلك- أن يصلوا في المصطلح إلى نوع من التحديد الَّذِي قد ينتهي بوضع حد جامع مانع له أو في أقل الأحوال يساعد على تقديم تصور برسم واضح المعالم له، ولكن المفهوم -كما هُوَ الحال- في «**الحاكميّة الإلهيّة**» يمثل جذرًا فلسفيّا وفكريًّا وثقافيّا متشعب الفروع، ومتعدد الاتجاهات تمثل فروعه واتجاهاته المختلفة دائرة فلسفيّة وثقافيّة تتسع أو تضيق لكنها في سائر الأحوال تتصل اتصالا وثيقًا بالنسق المعرفيّ الَّذِي ينتمي المفهوم إليه، فيتصل المفهوم بمصادر معرفة النسق ونظريّة معرفته وفلسفتها ومقاصدها وإطار النسق المرجعيّ وواقعه التاريخيّ إن كان له تجسيد في التاريخ. ومن الصعب أن لا يكون لمفهوم يتخذ شكل المفهوم ونتائجه ثم مصادر بنائه وموارده في مختلف جوانب الحياة الفكريّة والثقافيّة. إن بعض المفاهيم الإسلاميّة تكاد تمثل في حد ذاتها مَا يمكن تسميته بتخصيص دقيق في لغة العصر التعليميّة، بحيث لو أريد تدريسه وشرحه وتعليمه بالمستوى الَّذِي ذكرنا لاقتضى ذلك عشرات الساعات الدراسيّة وربما مئات منها، خاصّة إذا كان هذا المفهوم في مستوى مفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» في المنظور الإسلاميّ.

وليتبيّن صدق هذه الدعوى أود أن أشير إلى شبكة المصطلحات أو المفاهيم الفرعية التي يستدعيها مفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» عند النظر فيه وحاولة تحليله، والتي يعتمد عليها في تركيبه، ولا بد من توضيح نفسه ضمنها، إذ من الصعب إن لم يكن من المتعذر، أن يُلَمّ بمفهوم الحاكميّة الإلهيّة دون فهم تلك الشبكة والإلمام بها.

ومن هذه المفاهيم، مفهوم «الدين»، ومفهوم «العبادة»، ومفهوم «الحكم» بمعانيه المختلفة سواء أكان شرعيّا أو تشريعيّا أو عرفيًا، ومفهوم الألوهيّة والخلق والعبوديّة والدنيا والآخرة، والخطاب، والحلال والحرام، والمطلق والنسبي، والعام والخاص، والشرائع، ووحدة الدين، والأرض، وغير ذلك من أمور تتعذر الإحاطة بجوانب المفهوم المختلفة بدون الإلمام بها وتصنيفها. فبقطع النظر عن تفاوت طبيعة ومستويات تلك المصطلحات والمفاهيم المحيطة بالمفهوم الأصليّ موضوع الدراسة والتحليل لا يمكن الإلمام بحقيقته وفهمه دون إلمام بها بأيّ مستوى من مستويات الإلمام التي يقتضيها فهم ودراسة ذلك المفهوم.

إن الناس كثيرًا مَا يخطئون في استعمال المفاهيم بمجرد الربط بين الجذر اللغويّ الَّذِي يمثل عنوان المفهوم وبين بعض أنواع الاستعمال فيشيع بعض مَا يمكن أن نعتبره «**وعيًا كاذبًا**» عند إمعان النظر في تلك المفاهيم، وما هُوَ بوعي في حقيقته. ومفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» خلال العقود القليلة الماضية جرى تداوله بأشكال مختلفة من مدارس فكريّة متنوعة بذلك الشكل الَّذِي ألمحنا إليه. فبعضهم تناوله كما يتناول الشعر بحيث يكفي لمتناوله أن يقوم بتحليله ثم تركيبه ليكتشف معناه وبعضهم تناوله باعتباره واحدًا من أهم مقاصد الشريعة يمكن أن يعتبره أصلا يفرع عليه أحكامًا وفروعًا، إلى غير من أنواع التناول التي لم تزد المفهوم إلا غموضًا.

وقد حاول الكاتب جزاه الله خيرًا أن يخرج هذا المفهوم من تلك الدوائر أو الدروب الضيقة. وهذه المقدمة ستعمل على التنبيه إلى مَا أحاط ويحيط بهذا المفهوم من إنّ هناك أمورًا لا بد من توضيحها لتستطيع هذه المقدمة أن تتضافر مع البحث القيم في تقديم التصور المناسب لهذا

المفهوم؛ فإن الاضطراب والارتباك في تناول هذا المفهوم من مختلف المدارس ظل سائدًا في هذه الدراسات حتى الآن.

ولكي لا نسقط في وهم الحسم بقول الكلمة الأخيرة في هذا المفهوم الخطير، فإننا نود أن ننبه إلى بعض المعالم التي تعتبر ملاحظتها والوقوف عليها ضروريّة لفهمه، فإن لم يكن ذلك، فإنه يكون مساعدًا للوصول إلى نوع من الدقة والتحديد في مقاربته.

(أ) أود أن أنبه إلى دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبي الأنبياء، فقد خاطبة الله جل شأنه قائلا: [إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] (البقرة: ١٢٤). فهناك إذا إمامة بجعل جاعل هُوَ الله سبحانه وتعالى. وهناك ظلم وعدل، كقيم لا بد أن تعرف، وظالم لنفسه من البشر، ومقتصد، وسابق بالخيرات، والإمامة في هذه الآية الكريمة تأخذ شكل عهد إلهيَ بين الله -جل شأنه- وبين الإنسان. عهد لا يناله الظالمون ولا يقتربون منه ولا ينبغي لأحد أن يقرّبهم منه بحال، فضلا عن أن يمكنهم منه. وتبرز قيمة العدل هنا كمقابل للظلم باعتبارها الهدف الأول -بعد التوحيد- من أهداف الأنبياء ولمن يقومون في الناس بالإصلاح مقام الأنبياء من بعدهم. وهنا تبرز جملة من المصطلحات والمفاهيم الفرعية؛ إمامة قائمة على جعل إلهيّ، وعهد إلهيّ. وظلم وظالمون يقابله عدل وعادلون، إلى غير ذلك. ويفتح هذا الخطاب من الله سبحانه وتعالى إلى أبي الأنبياء إبراهيم نافذة على أولئك الذين جعلهم الله تبارك وتعالى أئمة يهدون بأمره من الأنبياء والمرسلين، الذين أمرنا بالإيمان بهم وأمرنا أن نقتدي بهداهم: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ] (السجدة: ٢٤)، [وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا] (الفرقان: ٧٤)، [أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ] (الأنعام: ٩٠).

(ب) تبدو في عمليّة الإمامة وارتباطها بالجعل الإلهيّ، فكرة الاصطفاء الإلهيّ. فهذه الفكرة ينبغي أن تلاحظ مع عمليّة الجعل والاختيار والاصطفاء الفرديّ: [اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ

الْمَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (الحج:٧٥)، اصطفاء يرتبط بمواصفات محدّدة لتفهم بها عمليّة اصطفاء الله -تعالى- لشعوب وأمم: [إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ] (آل عمران:٣٣)، وعمليّة الاصطفاء الإلهيَ لأفراد يكونون أنبياء ورسلا وأقوام يختارون ليكونوا ميدان نشاط هؤلاء الأنبياء والرسل وميدان قيادتهم وميدان هدايتهم. هُوَ أمر لا بد من ملاحظته ونحن نتحدث عن «**الحاكميّة الإلهيّة**» وهو اصطفاء لأداء مهام محدّدة استخلافيّة.

(ت) لا بد لنا من أن نرجع قليلا إلى الوراء للنظر في تاريخ النظم القانونيّة والتشريعيّة والاجتماعيّة التي عرفتها البشريّة في مختلف عصورها، لنجد أن هناك نظمًا قد قامت على أساس «**حكم إلهيّ**» أو «**حاكميّة إلهيّة**» بشكل من الأشكال، نظمًا كثيرة عرفها السومريون والأكاديون وعرف بعضها البابليون، وعرف بعضها الفراعنة وغيرهم من أبناء الحضارات القديمة، كما نجد نظمًا كانت تحكم باسم الشعب، شعب المدينة أو القبيلة أو سوى ذلك. وإذا نظرنا في ذلك التاريخ ورأينا ولاحظنا مسيرة مَا يقابله، فإن ذلك سيساعد كثيرًا على الوعي بطبيعة فكرة الحاكميّة بإطلاق. فكثير من النظم والقوانين القديمة نسبت إلى «**الدين**» بشكل من الأشكال، فكانت بعض نظم الحضارات القديمة تصدر عن الكهنة وبعضها يصدر عن الملوك أو القادة. فما يصدر عن الكهنة يعتبر أنّه وحي الآلهة، أو ظل الإله في الأرض، ويعطي هذا النوع من القواعد أو القوانين أو الأوامر سلطة إلهيّة، أو قوة في هذا المجال. وفي مقابل ذلك عرفت بعض الشعوب القديمة وخاصّة شعب روما فكرة اعتبار التشريع أو القاعدة التشريعيّة عملا إنسانيًّا يصدر عن الإنسان نفسه ولا يصدر عن الآلهة. وبذلك عبروا عن رغبتهم في فصل الدين عن القانون في روما فصلا لا يزال يعتبره كثير من فقهاء القانون من أهم الخصائص المميزة للقانون الرومانيّ عن أغلب النظم القانونيّة القديمة.

ولقد رد بعض مؤرخي النظم القانونيّة والاجتماعيّة الدور الأول في اتخاذ الملكية نظامًا عامًا في حضارة بلاد مَا بين النهرين القديمة إلى الدين. وقد كانت المدن السومرية تحكم في الأصل حكمًا دينيًّا، ولكن الحاكم المدنيّ يعتبر خليفة الإله في الأرض، وهو الكاهن الأكبر في المملكة، وبالتالي هناك مَا يشبه التوحيد بين السلطتين الزمنيّة والدينيّة لديهم. وتنفذ الأحكام باسم الإله في تلك الحضارة القديمة، بل إن اختيار الملك ذاته كان في تلك الحضارة ينسب إلى الإله، فكان الإله هُوَ الَّذِي يختار الملك بنحو من الأنحاء.

أمّا في عهد الملوك الأكاديين، فقد برزت عندهم فكرة الحكومة العالميّة ووصف الملك الأكبر بأنه ملك جبهات العالم الأربع، ثم اعتبر الملك نفسه واحدًا من الآلهة، مسئولا عن تنفيذ إرادة مجموع الآلهة في الأرض فهو تعبير عن إرادة الآلهة ولا يعمل إلا بوحي منها، وهو مسئول أمام الآلهة عن أخطاء رعاياها وانحرافاتهم، وبذلك يفرض على رعايا الآلهة طاعة مطلقة في الغالب.

أمّا في دولة الحيثيين في بلاد مَا بين النهرين فقد تغير الحال قليلا عما كان عليه في الملكيات الكبيرة ذات القانون الإلهيّ في مصر أو في بابل ليصبح الملك قائمًا على دعائم القوة فقط، ولتصبح شرعيّة وجود الملك وطاعته قائمة على كونه قويًا منتصرًا قادرًا على تحقيق الانتصار على سواه، أمّا الناحية الدينيّة فالملك لا يعتبر إلهًا ولا قائمًا مقام الإله في هذه الدولة، لكنه يعتبر مزودًا بمدد إلهيّ مَا دام قادرًا على الانتصار، ويمكن أن يدخل بعد موته في عداد الآلهة ويعامل على أنّه واحد منهم بعد ذلك أو يعتبر وسيطًا، كما كان الحال عند البابليين -بين الآلهة والناس، وتعتبر أحلامه ومناماته وتفاؤله وتشاؤمه وسيلة من الوسائل التي يعبر عن صلته بالآلهة.

وقد يكون أهم الشعوب التي لا بد من التذكير -بتراثها في مجال الحاكميّة الإلهيّة- العبرانيُّون ثم بنو إسرائيل. والعبرانيّون مصطلح أشمل وأعم من مصطلح بني إسرائيل، فهو في أرجح أقوال المؤرخين يتناول كل أولئك الذين عبروا الفرات باتجاه فلسطين وغيرها واستقر

بعضهم في فلسطين واختلط بالساميين واعتنق عقائدهم وذهب بعضهم إلى مصر وأقام فيها. فالعبرانيون أو العبريّون منهم مصريّون ومنهم ساميون قادمون من العراق تركوا بلاد مَا بين النهرين إلى فلسطين وإلى مصر في الدرجة الأولى أو إلى مناطق مجاورة بالنسبة للبعض.

وقد قضى العبرانيّون فترة طويلة في تنقل، وفي حالة أشبه مَا تكون بحالة البداوة يضربون في الأرض سعيًا في ابتغاء الكلأ، ويميلون إلى الاستقرار عندما يجدون سبله ووسائله والمياه المساعدة على ذلك. وقد كانوا في تلك المرحلة قبائل، تتكون القبيلة من مجموعة من الأسر التي تعتبر نفسها ذات أصل واحد.

والرابطة الأساسيّة في هذا النوع من النظم القبلية هِيَ رابطة الدم، التي قد تكون في بادئ الأمر، في حالة صغر القبيلة، حقيقية، ولكن بعد أن تتداخل في كيان القبيلة عناصر أخرى تقتضي القبيلة انخراطها في سلطتها وترتضي هِيَ ذلك يصبح هناك شيء أوسع من رابطة الدم فيما بين هؤلاء الذين يكونون القبيلة المختلطة. والمرجع في حكم القبيلة سواء في أعراف العرب أو في أعراف غيرهم ممن عاشوا حياة بداوة هُوَ شيخ القبيلة، فهو الحاكم فيهم وهو صاحب السلطة المطاع من القبيلة بإرادتها ورضاها. أمّا العبرانيون فكان لديهم شيوخ لقبائلهم. لكن الملفت للنظر أن كثيرًا من هؤلاء الشيوخ كانوا يلقبون بالنصوص فيقال نصي، أو فلان (نص) يراد به شيخ أو رئيس لقبيلة باعتبار أنّه قد اختير من نواصي القوم وأشرفهم فهو نص أو نصي باعتباره قد تم اختياره من النواصي أو من الرءوس والأشراف[١]، وبقيت قبائل العبريّين في بلاد كنعان «**فلسطين**»، واختلطت بالساميين من أهل الجنوب واعتنقت عقائدهم، ثم هاجر إسرائيل وبنوه إلى مصر حيث كان يوسف عليه السلام قد سبقهم إليها إثر كيد إخوته له ثم أصبح وزيرًا لفرعون فيها. ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه الهجرة، وإن كان منهم من يميل إلى تحديدها بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد، وأقام بنو إسرائيل في شرق الدلتا في مصر رعاة في أول

---

[١] تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، محمد بدر.

الأمر ثم زراعًا مستقرين استقرارًا امتد في الزمان عدة قرون. وإذا تجاوزنا هذه المصادر التي تقوم على نوع من الافتراضات، وحاولنا أن نجد مَا يمكن الاعتماد عليه بشكل أو بآخر نجد بين أيدينا نصوص العهد القديم التي حدّدت الفترة بين وصول إبراهيم وهجرة إسرائيل وبنيه بما يزيد على قرنين ورد قوله: كان عمر إبراهيم خمسة عشر عامًا كما في سفر التكوين (١٢/٤)، حيث ورد قوله: كان عمر إبراهيم خمسة وسبعين عامًا عندما ترك حران إلى فلسطين وبعد خمس وعشرين سنة ولد إسحاق كما في (٢٦/٢٥)؛ وعندما كان عمر إسحاق ستين عامًا ولد له يعقوب كما في الإصحاح (٤٧/٩)، وأن يعقوب قد وصل إلى مصر وعمره (١٣٠سنة)، وحين شاءت حكمة الله جل شأنه اصطفاء بني إسرائيل وإخراجهم من حالة الشتات والقبلية والتشرذم ليكونوا قومًا وليحملوا التوراة وأذن بخروجهم من مصر، فاختار لهم موسى كليّمه عليه السلام ليقوم بهذه المهمة وليؤدي هذه الرسالة، وليوحد قبائل بني إسرائيل ويجعل منهم شعبًا ويجعل منهم قومًا ويوجد بينهم رابطة عقيدة ودين. كان لا بد لتوحيد القبائل والأسباط الإسرائيليّة وجعلها شعبًا واحدًا من كثير من الجهد الَّذِي بذله موسى وأخوه هارون عليهما السلام منذ الخروج ببني إسرائيل من مصر ومجاوزته بهم البحر. وكان من أبرز الوسائل التي اتبعت في توحيد هذه القبائل وتحويلها إلى شعب الالتفاف الَّذِي صاروا إليه حول موسى عليه الصلاة والسلام باعتباره رسولا إلى بني إسرائيل، فهذا الالتفاف جعل من جميع الملتفين حوله المتقبلين لرسالته جزءًا من شعب الله وجعل الأرض المقدسة التي بارك فيها وأخرجهم إليها أرض مملكة الله تبارك وتعالى، فمن أراد أن يكون ضمن شعب الله وينضم إلى مملكة الله من بني إسرائيل، فليس عليه إلا أن يتقبل «**حاكميه الله**» المباشرة، وأن يتقبل فكرة الإيمان بموسى وأخيه هارون عليهما السلام نبيين مرسلين من الله –جل شأنه- يحملان إلى الشعب رسائله وكلماته، وأن يتقبل الخروج إلى الأرض المقدسة والإقامة فيها والارتباط بها، وأن يتقبل مَا ورد في التوراة وما ورد في الألواح التي جاء بها موسى عليه السلام من ربه. وقد ارتبط ذلك بأن الله سبحانه قد استجاب لكل مَا كان ذلك الشعب يطلبه من عطاء إلهيّ، فحينما طلبوا الماء فجره لهم، وحينما

طلبوا طعامًا معينًا هيأه لهم وأنزل الله عليهم المن والسلوى: [فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا] (البقرة: ٦٠) وربط بين العطاء الإلهيّ المعجز وبين الخوارق الحسية التي أعطينا موسى وبين العقوبات الصارمة، والتشديد في وجوب المتابعة منهم حين يرفضون طاعة الله جل شأنه: [وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ] (الأعراف: ١٧١)، فإذا رفضوا أخذ مَا أوتوا جاءهم مثل هذه الخوارق لينسجم ذلك العطاء الإلهيّ المباشر مع تلك العقوبات الصارمة التي تشير إلى أن هذا الشعب، وقد أعطى مَا أعطيه واستجاب الله تبارك وتعالى لكل مَا طلبه وأراه من خوارق آياته مَا أراه لم يبق أمامه إلا الخضوع والاستسلام والطاعة المطلقة للإله جل شأنه، ومع ذلك فقد كان بنو إسرائيل كثيري التمرد، كثيري الخروج على هذه الحاكميّة الإلهيّة المباشرة، ويكفي أن نشير إلى حادثة ردهم الجماعيّة، حيث ارتدوا بمجرد أن غادرهم موسى عليه السلام وعبدوا العجل بالرغم من وجود أخيه هارون بينهم، فكانت ردة جماعيّة من قبل هذا الشعب المختار عن تأليه الله تبارك وتعالى وعباداته والخضوع لحاكميّته، بل كانوا كثيرًا مَا يثورون على موسى عليه السلام ويلومونه على إخراجه لهم من أرض مصر وحرمانهم من الأطعمة المصريّة، وهناك في سفر الخروج جملة من الإصحاحات تشير إلى هذا الأمر، يمكن النظر إلى الإصحاح (٩/٣٢، ٣/٣٣، ٥) وغيرها كما وردت في القرآن الكريم إشارات إلى هذا. وفي سفر الخروج يؤكد الإصحاح (٣/١٧) قول هارون عليه السلام لموسى عليه السلام: «**أنت تعلم كم يميل هذا الشعب إلى فعل الشر**»، يحدث لهم كثير من الأمور، وتقع فيه جملة من التطورات خاصّة بعد وفاة موسى وأخيه هارون عليهما السلام. فلقد تفرقت كلمتهم من جديد واختلت نظمهم وانحلت أواصر التضامن فيما بينهم وانخرط بعضهم في شعوب مجاورة، وتأثر بعضهم بتلك الشعوب المجاورة حتى بلغوا مستوى عبادة الأصنام كما يشير إلى ذلك العهد القديم في كتاب «**القضاة**». وفي تلك المرحلة انتشرت بينهم الفتن والشدائد، وكلما قام فيهم نبي لدعوتهم للوحدة والتكاتف من جديد أصابه منهم مَا أصابه منهم، فقتلوا الكثير من أنبيائهم وتمردوا على سلطانهم وارتضوا

لأنفسهم تلك الحالة السيئة التي كان الله سبحانه وتعالى قد أنقذهم وأخرجهم منها. فمروا بجملة من العهود منها ذلك العهد الَّذي عرف «**بحكم القضاة**»، ثم ذلك العهد الَّذي عرف بعهد الملوك.

وقد بعث الله لهم في مرحلة من المراحل داود وسليمان عليهما السلام كخلفاء [يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ] (ص:٢٦). فانتقل الأمر من مرحلة «**الحاكميّة الإلهيّة**» المباشرة إلى حاكميّة استخلاف أنبياء ومرسلين يحكمون في ذلك الشعب بشريّعة الله تبارك وتعالى، وبما جاء في التوراة باعتبارهم رسلا مستخلفين عن الله. وإذ لم تقف عمليّات تمردهم وانحرافهم في إطار ذلك الأمر طلبوا من الله أن يجعل لهم ملوكًا كغيرهم من الناس تأثرًا بمجاوريهم، ورغبة منهم في محاكاتهم، كيف لا وقد حاكوا أولئك الأقوام الذين جاوروهم في بعض الفترات والمراحل في عباداتهم الأصنام، فكيف لا يوافقونهم في هذا؟!، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر حين قال جل شأنه: [إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا] (البقرة: ٢٤٦) فجعل الله لهم طالوت ملكًا، [وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ] (البقرة ٢٤٦-٢٤٧).

فإذًا نستطيع أن نقول: إنّه في بني إسرائيل قد عرفت «**الحاكميّة الإلهيّة**» بشكل فيه كثير من التحديد، فهناك كتاب سماويّ أنزل وألواح أنزلت مكتوبة نصًا (زعموا أنّه سبحانه قد خطها بإصبعه)، وقد أمروا وكلفوا بتطبيقها، وهناك أنبياء مرسلون يقومون على عمليّة التبليغ والتوسط بينهم وبين الله جل شأنه ولكنهم جميعًا يشتركون في ملاحظة خوارق العطاء، وتلك المكرمات الإلهيّة المباشرة، وفي الوقت نفسه يشتركون في ملاحظة العقاب الشديد عندما يقع انحراف عن تطبيق التوراة أو تطبيق الشريعة، وفي العهد الملكي لهم وعهد الاستخلاف استقام

لهم الأمر قليلا في عهد داود عليه السلام ثم في عهد سليمان عليه السلام، ولكن بمجرد وفاة سليمان عليه السلام حاق بالقوم مَا أنذرهم الله جل شأنه به من أن انحرافهم سوف يسرع بهلاكهم. وهكذا احتل الآشوريون عاصمة إحدى المملكتين، إسرائيل (سنة ٧٢١ ق. م) وضموها لإمبراطوريتهم، واستولى نبوخذ نصر على مملكة يهوذا ودمر المعبد (سنة ٥٨٧ ق. م)، وأخذ أهلها رقيقًا إلى بابل لتبدأ مرحلة جديدة تمر بعدها كل تلك القرون المتطاولة والتي انصهر فيها بنو إسرائيل في كل شعوب الأرض ودخلوا في كل الأديان المشركة والموحدة واعتنقوا مختلف النحل ليعودوا اليوم يتحدثون عن أرض الميعاد وعن إقامة مملكة إسرائيل، وإقامة الهيكل والعودة إلى مَا كان عليه الآباء بناء على مَا زعموا أنّه كان وعدًا إلهيًّا قد قطع لهم بأن يرثوا هذه الأرض المقدسة (وما ورثتهم ذاك أم ولا أب).

* * * * *

- **<u>الحاكميّة الإلهيّة في التصور الإسرائيليّ:</u>**

يمكن أن نحدّد أهم المبادئ الأساسيّة «**للحاكميّة الإلهيّة**» كما هِيَ في التصور الإسرائيليّ:

<u>المبدأ الأول:</u> بأن الله -جل شأنه- قد اختار شعبه من بني إسرائيل، واختار تبارك وتعالى أن يكون الحاكم المباشر لهذا الشعب، وأن يكون من بين أبناء هذا الشعب أنبياء ورسل يتصلون بالله تبارك وتعالى، ويأخذون منه تعاليمه ليبلغوها لهذا الشعب، وهِيَ تلك التعاليم التي اشتملت عليها الأسفار الأولى من العهد القديم، وبخاصّة سفرى «**الخروج والتثنية**» باعتبار أن تلك الأسفار هِيَ كلام الله تبارك وتعالى المباشر للشعب، كما أنّه جل شأنه قد قدم على لوحين الوصايا العشر التي كتبها بنفسه جل شأنه وخطها بإصبعه كما تقول بعض نصوص التوراة في سفر «**التثنية**» ليقدمها رسوله موسى عليه السلام إلى شعبه المختار ليقوم بتنفيذها وتطبيقها، وأن هذا القانون الّذي جاء إنّما هُوَ قانون الله وكلامه تبارك وتعالى لا يملك أحد من الناس بما في ذلك الأنبياء والمرسلون الذين حملوا الرسالة من الله تبارك وتعالى إلى الشعب لا يملكون

التدخل فيها بالتغيير أو بالإضافة أو بالنقض أو بالتأويل، فليس لأحد غير الله جل شأنه رسولا كان أو نبيًا أو حاكمًا أو حبرًا أو ربيًا أن يقوم بعمليّة نسخ أو تبديل لشيء من كلام التوراة أو إضافة شيء إليه.

المبدأ الآخر: إنّ هذه الحاكميّة أو هذا الاختيار يجعل من شعب إسرائيل أقرب الشعوب إلى الله تعالى، بل أبناء الله تبارك وتعالى وأحباؤه، وأنه ليس لأحد من العالمّين مكانة كمكانتهم، وهذا يعطيهم صفة خاصّة تجعل منهم شعب الله تبارك وتعالى ، ويعطي أرضهم مكانة القداسة بحكم تقديس الله جل شأنه لهم. وكانت هذه الحاكميّة بهذا الفهم وبهذه الطريقة واضحة مفهومة لديهم قبل أن ينتقلوا إلى مرحلة «**القضاة**»، ثم إلى مرحلة «**الخلفاء**»، ثم «**الملوك الأنبياء**» أو «**الخلفاء الملوك**» كما هُوَ الحال بالنسبة لنبي الله سليمان عليه السلام، لذلك نستطيع أن نقول: إنّ تاريخ هذا المفهوم يتضح أكثر مَا يتضح في تاريخ بني إسرائيل، وفيما كانوا عليه بالصورة التي أشرنا إليها، وبذلك نستطيع أن نقول: إنّ مفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» في النظام الدينيّ اليهوديّ قائم على تعامل إلهِيَ مباشر مع قوم معينين هم بنو إسرائيل أعطاهم من العطاء كل مَا يريدون وتشتهيه أنفسهم، وفي الوقت نفسه قابل هذا العطاء الخارق بعقاب خارق عند الانحراف والمعصية. فالعلاقة بين الله تبارك وتعالى وشعبه المختار هِيَ علاقة عهد مباشر، ولذلك سميت التوراة بالعهد سواء قلنا العهد الجديد أو القديم، فهو عهد بينهم وبين الله تبارك وتعالى ، أو هكذا تصوره النصوص التي أشرنا إليها.

* * * * *

- **تطلع بني إسرائيل إلى التخفيف:**

وبمتابعة هذا نستطيع أن ننتقل إلى مؤشر آخر مهم في هذه الحالة، وهو أن اليهود بعد كل تلك المراحل كانوا حريصين الحرص كلّه على أن يحصلوا من الله تبارك وتعالى على نوع من التخفيف في المجال التشريعيّ فكأنهم بعدما تدرجوا من «**الحاكميّة الإلهيّة المباشرة**» إلى

«**حاكميّة الاستخلاف النبويّ**» إلى «**حاكميّة الملوك الأنبياء، ثم الملوك العاديين**»، قد بدءوا يحاولون وهم يرون أن كثرة انحرافاتهم متأتية من الشدة التي جوبهوا بها من الباري -جل شأنه- ومن الشريعة التي اشتملت التوراة عليها، كانوا يرون لو أن الله تبارك وتعالى خفف عليهم التكاليف، ودفع عنهم العقوبات، وغيّر من اتجاهات التكليف التي كانت اتجاهات قسر وضغط وتشديد وإصر وأغلال لتقييد قوم كان من غير الممكن تقييدهم بشيء، دون استعمال هذه الأساليب. فسألوا الله سبحانه وتعالى التخفيف، وتسجل «سورة الأعراف» في القرآن العظيم الّذي جاء بعد عمليّة الردة الجماعيّة التي سقط فيها بنو إسرائيل قول الله جل شأنه: [وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (الأعراف:١٥٥ -١٥٧)، توضح لنا هذه الآية الكريمة كيف كانت المحاولة الأخيرة في حياة موسى عليه السلام أن يطلبوا من الله جل شأنه تخفيف الشريعة ليمكنهم احتمالها وتنفيذها وتطبيقها، ولكن الله جل شأنه قد اقتضت حكمته أن يجعل التخفيف خاصيّة الشريعة الخاتمة والرسالة العالميّة الأخيرة، وليست خاصّة بذلك الشعب الّذي طالما تمرد وانحرف ورفض كل أنواع الالتزام بتلك الشريعة المنزلة عليه، والتي كانت سبب وحدته ولمه من الشتات وإخراجه من ذل العبوديّة، ولكن ذلك الشعب لم ير نعمة الله جل شأنه عليه و لم يرع حق الله -جل شأنه- عليه في ذلك كله.

لعلّه اتضح مما تقدم بعض آثار مفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» في العقل اليهوديّ، حيث قد انعكس المفهوم وظلاله على كل جوانب الحياة لديهم، فانعكس على رؤيتهم الكلية وتصورهم وخصائصه ومقوماته ومفاهيمهم للإنسان والشريعة والكون والحياة والعبوديّة والألوهيّة والنظام العام. فكل هذه الأمور قد تأثرت بمفاهيم «**الحاكميّة الإلهيّة**» عندهم.

* * * * *

- **الحاكميّة الإلهيّة في النصرانيّة:**

وهنا تتضح الحاجة إلى مجيء رسول آخر ورسالة أخرى تقوم بعمليّة التصحيح وتقويم تلك الآثار التي نجمت عن تأثر العقل اليهوديّ بكل تلك المنظومة المفاهيمية التي جعلته على تلك الحالة من الاضطراب: اضطراب العلاقة بالله تبارك وتعالى، واضطراب العلاقة بالكون، واضطراب العلاقة بنفسه، واضطراب العلاقة بأنبيائه، واضطراب العلاقة بجيرانه، فكان أن أرسل الله جل وعلا عيسى عليه الصلاة والسلام ليهدي -كما قال- الخراف الضالة من بني إسرائيل، وليصدق الَّذِي بين يديه فيقوم بعمليّة استرجاع له وتمحيص ونقد وتمييز للصحيح منه عن الفاسد، فكان ابن مريم عليه السلام، وقد أرسل لبني إسرائيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الَّذِي حرم عليهم، وليبشر العامّة الشاملة ليخاطب البشريّة كلها، وقد أقر السيد المسيح عليه السلام مَا جاء في التوراة فقال: «**لا تظنوا أني جئت لأنسخ الشريعة؛ أي: التوراة، مَا جئت ناسخًا؛ بل مصدقًا لما فيها، وأقولها لكم حقيقة إلى أن نزول السماء والأرض لا ينسخ حرف من الشريعة ولا نبرة على حرف حتى يتحقق كل شيء**»، وقال عليه السلام: «**زوال السماء والأرض أكثر سهولة من أن نسقط نبرة على حرف من الشريعة**»، ولكن هذا التأكيد من السيد المسيح على أنّه مَا جاء إلا ليجمع الكلمة من جديد على التوراة، وليعلمهم كيف يطبقونها بصدق وحق وردت فيه إصحاحات كثيرة من الأناجيل مثل: إنجيل متى (٤/٤)، وما ورد أيضًا متى (٤٧/٢٢ إلى ٤٠)، وكذلك بعض مَا جاء في إنجيل

لوقا (١٧/١٦) وغيرها، والتي تشير إشارة واضحة إلى أن السيد المسيح وهو يعزز سلطان التوراة ويدعو إلى الالتزام بها فيما جاء به وتعليمهم كيفيّة تطبيقها بشكل صادق بقطع النظر عن حيلولة الظروف بينه وبين تحقيق كثير من ذلك على يديه عليه السلام يكثر منها مؤكدًا عليهم أنّهم قد أساءوا فهم نصوص التوراة وتمسكوا بحرفيتها وتجاهلوا أو تناسوا روحها. فهو يحاول فيما جاء به أن يعيد إلى عقولهم وقلوبهم فهم التوراة روحًا ونصًا وليس نصًا فحسب إلى غير ذلك من أمور، ولذلك فإنهم حينما كانوا يثيرون أو يناقشون معه بعض الأمور ذات المعنى القريب من هذا المفهوم كثيرًا مَا يحاول أن يضرب لهم الأمثال ويحاول أن يصرفهم إلى جوهر الأمر وروحه، ففي إنجيل متى (٣٩/٥)، ولوقا (٢٩/٦) يقول: «**علمتم أنّه قيل العين بالعين والسن بالسن حسنًا، وأقول لكم: لا تقاوموا المرء السيئ بل على العكس من صفعك على خدك الأيمن فامدد له الآخر أيضًا**»، وهذا وإن كان يستفاد منه أنّها محاولة منه عليه السلام ليصرفهم عن قضيّة العقاب وهو تشريع وارد في التوراة، ولكنه ليس كذلك، وإنّما هُوَ محاولة لمعالجة هذا الوضع وكأنه يقول لهم: لا تتشبثوا بحرفية الشريعة، بل حاولوا أن تفهموا روحها وأن لا تفهموها مجزأة هكذا، بل حاولوا أن تفهموها بشكلها الكامل أو الكلي مع ملاحظة أهدافها، كذلك حاول عليه السلام أن يفرق في هذا بين النظام العام وسيادة الشريعة، وهما الأمران اللذان ينبغي على الجميع أن يلتزموا بهما ويحترموهما وبين حقوق الأفراد وقضاياهم الخاصّة التي ينبغي أن تسودها روح الإخاء وروح التسامح، فإذا لوحظ هذا ولوحظت معه الظروف التي بعث فيها سيدنا المسيح عليه السلام، وسيادة روما وقوانينها في تلك المرحلة، وتشتت بني إسرائيل وتعطيل الشريعة، شريعة التوراة في جميع أنحاء الأرض التي يقطنون فيها، فإن ذلك يشير بوضوح ويساعد على فهم كثير من تعبيرات السيد المسيح التي فهمت على أنّه لم يأت بشيء ذي علاقة بقضيّة التشريع، وإنّما اقتصر عليه السلام على قضيّة العقيدة وعلى التصحيح الخلقيّ، وعلى التقويم الأخلاقيّ إن صح التعبير.

....

وهنا لا بد من ملاحظة بعض الأمور المهمة، منها: أنّ السيد المسيح كان يؤكد على سيادة التوراة وعلى عدم جواز النسخ فيها، وإحداث أيّ تغيير أو تعديل في تعاليمها، لكنه في الوقت نفسه كان يحاول أن يقدم رؤية في عمليّة تطبيقها بشكل سليم، وكان يحاول أن يغلق الطريق أمام أولئك الأحبار والرهبان من اليهود الذين مالئوا الحاكم الرومي وقبلوا سلطانه وبدءوا يحاولون أن يطوعوا الشريعة من خلال تحريف وتأويل نصوص التوراة لإرادته، فكان السيد المسيح في هذا الأمر يحاول أن يسد الطريق على هؤلاء، وأن يفتح بابًا للفهم الحقيقي لنصوص هذه التوراة، ولذلك فإن اليهود حينما ذهبوا إلى الحاكم الرومي اتهموه بتهم حدّدوها بأنه عليه السلام كان يستثير الأمّة على العصيان، وكان يمنع من دفع الجزية إلى قيصر، وكان يقول عن نفسه: إنّه المسيح الملك، فسأله بيلاتز: أنت ملك اليهود؟ فأجابه اليسوع: أنت تقولها. وتختلف رواية لوقا عن سابقيه بعد ذلك فيقول: إنّ الحاكم الرومي قال لليهود بعد ذلك مباشرة: إني لا أجد على هذا الرجل شيئًا من جريمة، فأصر اليهود وقالوا: إنّه يستثير الشعب معلمًا بكل اليهوديّة من الجليل، حيث بدأ حتى هنا فوجد بيلاتز -الذي لم يكن مقتنعًا بتجريم السيد المسيح- مخرجًا بهذا فأحاله إلى حاكم الجليل ليتولى أمر محاكمته بدلا من أن يقع هُوَ في هذا الأمر. والحوار الَّذِي دار بين الحاكم الرومي وبين السيد المسيح لا يلفت النظر فيه إلى مجال «**الحاكميّة**» أو إلى موضوع «**الحاكميّة**» إلى قوله عليه السلام والحاكم الرومي يقول له: ألا ترى أني أملك سلطة إطلاقك أو صلبك؟! رد عليه السلام: ليس لك سلطة تجاهي البتة مَا لم تكن أعطيتها من أعلى. فاعتبرت هذه العبارة من المسيح عليه السلام تأكيدًا لمبدأ التوراة أو العهد القديم بأن «الحاكميّة» لله سبحانه وتعالى يكلها لمن يشاء أو يستخلف فيها من يريد، وقد أكد القديس بولس هذا في رسالته إلى أهل روما (١٣/١) بقوله: «**لا سلطة مَا لم تكن من الله تعالى**» فهذا مَا يمكن قوله عن مفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» فيما يتعلق بالنصرانيّة وبالسيد المسيح، أي: أنّه أكد مَا جاء في التوراة حولها، وحاول أن يعزز بذلك من سلطان التوراة والتشريع الإلهيّ في مقابل سلطان الروم وفي ظل قوانينهم التي وضعوها بأنفسهم ولم يعودوا يسمحون

لشيء غيرها لا لشريعة التوراة ولا لسواها بأن تبرز أو تستعمل أو تتحدى بها تلك القوانين الرومانيّة الوضعيّة. وبالتالي كان السيد المسيح يحاول أن يعيد الاعتبار للشريعة ولأسسها وقواعدها ومقاصدها، ولكن في ظل مقاومة الآخر الروميّ وضغطه لا في ظل أجواء حرة، يستطيع أن يتصرف أو يتحرك فيها بملء إرادته، بدليل أنّه قد اتهم بعد ذلك -كما أشرنا فيما سبق- وحوكم وكاد يصلب لولا أن الله سبحانه وتعالى أنجاه من ذلك ورفعه إليه. فبالتالي فإن هذه التجربة يجب أن تلحظ فيها كل هذه الجوانب وكل هذه الأمور، وتتميز القواعد والأسس التي يقوم عليها ذلك المفهوم وتبيّن وتظهر. ولعلّ من المفيد أن نختم القول فيما يتعلق «بالحاكميّة الإلهيّة» في بني إسرائيل ببعض النصوص التي نقلها ابن ميمون وقام بشرحها عن التوراة، والتي من شأنها أن توضح التصور الّذي ذكرناه.

يقول ابن ميمون: وفي هذا أيضًا أعطى القاعدة التي لم أزل أبينها دائمًا، وهِيَ أن كل نبي غير سيدنا موسى عليه السلام فإنه يأتيه الوحي على أيدي ملك فيعلمه، وأما موسى عليه السلام فإنما نبوته مباينة لكل من تقدمه، فهو قد تجلى له كما تجلى لإبراهيم واسمه لم يعلنه لهم، وإنّما أعلنها لموسى عليه السلام، وإن الوقوف على جبل سيناء لم يكن جميع الواصل لموسى عليه السلام هُوَ كلّه الواصل لجميع بني إسرائيل، بل الخطاب لموسى عليه السلام وحده، ولذلك جاء خطاب الأوامر العشرة كلّه مخاطبة الواحد المفرد وهو عليه السلام يترل إلى أسفل الجبل ويخبر الناس بما سمع من نص التوراة: **«وأنا قائم بين الرب وبينكم في ذلك الوقت لكي أبلغكم كلام الرب، وقال أيضًا: موسى يتكلم والله يجيبه بالصوت لكي يسمع الشعب مخاطبتي لك» فهذا دليل كما يقول ابن ميمون على أن الخطاب له وهم يسمعون الصوت لا تفصيل الكلام**، كما في أدلة الحائرين لموسى ابن ميمون القرطبي الأندلسي (ص ٣٩١) وما بعدها.

وابن ميمون في هذا يحاول أن يبين الصلة بين الله تعالى وبين شعبه إسرائيل والأرض المقدسة التي يسكن فيها فهِيَ «**مملكة الله**» في نظره ونظر علماء بني إسرائيل، وذلك يعني: إنّها

أرض وشعب وحاكم هُوَ الله جل شأنه والأنبياء على عهد موسى مبلغون: «**فالحاكميّة المطلقة لله جل شأنه**»، أمّا الأنبياء فهم مبلغون للشعب، فهذا فيما يتعلق بعهد موسى.

أمّا داود عليه السلام فكان خليفة نبيًا، وسليمان عليه السلام كان خليفة ذا ملك ونبوة، والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول جل شأنه: [يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى] (ص:٢٦). فهِيَ حاكميّة قائمة على استخلاف الحكم لله، ولكن النبي خليفة، بحيث إذا أخطأ في حكمه، أو لم يوافق الصواب جرى تصحيحه على الفور وقصة تسور المحراب ومجيء الخصمين إلى داود عليه السلام كما ذكرها القرآن الكريم وأشارت إليها التوراة منبه إلى هذا كذلك قول الله تعالى: [فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ] (الأنبياء:٧٩)، فكأن الباري جل شأنه يوجه بشكل مباشر أنبياءه الخلفاء نحو هذا، ثم بعد ذلك طلبوا الملك وأن يكون لهم ملك مثلهم مثل أنبياءه الخلفاء نحو هذا، ثم بعد ذلك طلبوا الملك وأن يكون لهم ملك مثلهم مثل الناس كما طلبوا في بداية الأمر: [اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ] (الأعراف:١٣٨)، حينما رأوا الأصنام، وفي ذلك تنبيه ودلالة على مدى حب شعب إسرائيل لقضيّة التقليد وتأثرهم به واستعدادهم التام لمتابعة وتقليد سواهم، فكانت مطالبتهم بالملكية بعد ذلك مظهرًا من مظاهر نزوعهم إلى التقليد دون تفريق بين حق وباطل.

* * * * *

- **الحاكميّة الإلهيّة والرسالة الخاتمة:**

فيما يتعلق بالرسالة الخاتمة أول مَا يلحظه المرء أنّها قد نظرت إلى الإنسان على أنّه إنسان قد نضج، وأنه قد أصبح أهلا لحمل الأمانة والمسئوليّة والوفاء بالعهد الّذي بين الله تعالى وأبيه آدم وإقامة العمران الّذي يعتبر مهمته الأولى في هذا الكون وتحقيق الخلافة والقيام بمهمة الأمانة، ويشير الله جل شأنه إلى رسول الله مُحَمَّد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- بأنه الحامل لرسالات الأنبياء الذين سبقوه كلهم حمل تصديق وهيمنة واستيعاب وتجاوز ينقي تلك الرسالات من كل

مَا قد يكون لحق بها من تأويلات الجاهليّن، وتحريفات المبطلين، وانتحالات الغاليين، ولنبدأ بتدبّر الآيات الكريمة التي أشارت إلى الحكم والحاكميّة مثل قول الله تعالى: [إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ] (الأنعام: ٥٧)، و [وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (المائدة: ٤٧)، [وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ] (الشورى: ١٠)، وكذلك [وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] (المائدة: ٤٤)، و [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] (النساء: ٦٥)، لكن صلب رسالة مُحَمَّد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ-، ومهمته الأساسيّة التي جرى تحديدها على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: [رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (البقرة: ١٢٩)، ثم يذكر الله جل شأنه هذا ممتنًا، فيقول: [لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ] (آل عمران: ١٦٤)، ويأمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن يلخص مهمته بقوله: [إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ] (النمل: ٩١-٩٢). فنجد في هذه الآيات الكريمة محاولة لبيان المهام الأساسيّة التي كلف رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بها والتي لم ترد فيها إشارة إلى، الحكم والحاكميّة، ونج مقابلها تلك الآيات التي منها سادت المفاهيم التي شاعت مؤخرًا عن «الحاكميّة»، وحين نتبع حياة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- نجده قد مارس قيادة وحكمًا وقضاء وفتوى وتعليمًا، لكن ذلك كلّه كان من منطلق النبوة وليس من منطلق السلطة والسلطان. فالنبوة المعلمة، النبوة المربية، النبوة المزكية، وليس سيف السلطة والسلطان.

ومن الأمور الجديرة بالتأمل أنّه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- عندما جاء لفتح مكة وأمر بأن توقد النيران على رءوس جبالها قبل دخولها في اليوم التالي لكي يدفع قريشًا للهزيمة النفسيّة وعدم المقاومة، كان أَبُو سفيان قد صحبه العباس ليذهب إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- في تلك الليلة ويعلن إسلامه قبل دخول رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- مكة وليلتمس من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- تشريفًا له بأمر من الأمور، وعندما رأى أَبُو سفيان النيران موقدة وتصور كثرة من مع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- من صحابة ومقاتلين قال: يا عباس؛ «**لقد أصبح ملك ابن أخيك واسعًا**»، فأجابه العباس قائلا: «**إنّها النبوة يا أبا سفيان لا الملك**». يتضح عند تأمل هذا الحوار أن أبا سفيان كان يخلط بين الملك والنبوة، أمّا العباس فقد كان واضحًا لديه أنّها النبوة، وأن النبوة شيء آخر يغاير الملك ويغاير السلطان، ولذلك حاول أن يصحح فهم أبي سفيان فقال له: «**إنها النبوة لا الملك**». ورسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- في كل أحاديث التي كان يؤكد بها مثل قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- لذلك الَّذي ارتجف أمامه من هيبته: «**هون عليك، فإني لست بملك إنّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»[٢]، وقوله: «**اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا**»[٣] وغير ذلك. فكل هذه الأمور تدخل في إطار محاولة نفي السلطة والتسلط والتأكيد على المفهوم النبويّ في الحكم، فهِيَ نبوة قائمة على تلاوة القرآن الكريم، تلاوة آيات وتعليمها وتربية الناس وتقويم سلوكهم بها، وحتى ممارسة مَا يعتبر تصرفات سياسيّة كان يتم من منطلقات تربويّة تعليميّة أو من منطلقات سلطويّة، وهذا هُوَ الفارق الأساسيّ بين حكم النبوة وحكم سواها، ولذلك جاء في الحديث الشريف: «**تكون الخلافة بعدي ثلاثين أو تكون بعدي خلافة على منهاج النبوة**»[٤]، وهذه الأخيرة تعني أن يكون الخليفة مدركًا أنّ مهمته الأساسيّة

[2] تخريج الحديث.

[3] تخريج الحديث

[4] تخريج الحديث .

أن يتلو على الناس آيات الله تبارك وتعالى ويعلمهم الكتاب والحكمة. ومن التزكية ذلك التوجيه القائم على مكافأة الْحَسَن ومعاقبة المسيء ونحو ذلك مما لا يندرج في إطار التسلط والجبريّة، بل في إطار التزكية والتعليم والتربيّة، واستعراض ذلك كلّه يجعل من الصعب أن يطلق القول بأن هناك حاكميّة سلطوية في الإسلام تقوم على هيمنة مطلقة لله تبارك وتعالى أو لنبيه باسمه أو لخلفاء نبيه باسمه أو باسم شرعه، لكن هناك تربيّة وتزكيّة وتلاوة وتعليمًا. ومن هذا المنطلق تجري كل التصرفات الأخرى التي يمكن أن يفهم منها هذا المعنى، وفي الوقت ذاته تجد أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- في الحديث المعروف: «**الخلافة تكون خلافة ثم ملكًا عضوضًا ثم جبريّة...** »[5] إلخ، ففي هذه القراءة المستقبليّة للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- لما سيحدث بعده، وفي كيفيّة فهم هذا الأمر بعده بهذه كان -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- يفرق تفرقة كبيرة بين خلافة على منهاج النبوة وبين حاكميّة مهيمنة متسلطة تحت أي اسم أو شعار، فإذًا هناك في الإسلام نبوة وخلافة على منهاج النبوة، أمّا «**الحاكميّة**»، فقد آلت إلى كتاب الله -جل شأنه- الَّذِي وصف بصفات لم توصف بها الكتب السابقة وأحيط بضمانات إلهيّة لحفظ نصه، بحيث يبقى محفوظًا عبر الأجيال إلى يوم القيامة. من أجل تحقيق هذه الغاية فكان القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه وكان هذا القرآن الكريم مهيمنًا وكريمًا، والشريعة التي يحملها شريعة تخفيف ورحمة ووضع للإصر والأغلال وغير ذلك من خصائص تجعل القرآن الكريم هُوَ الحاكم، لكن بقراءة إنسانيّة، فالإنسان هُوَ القارئ دائمًا، ومن هنا تأتي قضيّة القراءة وأهميتها ومنهجيّة الجمع بين القراءتين وارتباطهما بهذا الأمر. «**فالحاكميّة الإلهيّة**» قد انتهت عند بني إسرائيل وآلت إلى أنبياء خلفاء ثم ملوك في بني إسرائيل أنفسهم، وانتهى ذلك الطور.

أمّا في الرسالة الخاتمة فقد بدأت بنبوة قائمة على التربيّة والتعليم والتزكيّة وتلاوة الآيات، وموِرست فيها متطلبات العمران والشهود الحضاريّ، ولكن من منطلقات النبوة والخلافة، وآلت الحاكميّة فيها إلى كتاب الله تبارك وتعالى الَّذِي يعتبر المصدر الوحيد المنشئ للأحكام،

---

[5] تخريج الحديث

والذي هُوَ تبيان لكل شيء. فليست تنزل في أحد من أهل دين الله تبارك وتعالى نازلة إلا وفي كتاب الله تبارك وتعالى الدليل على سبيل الهدى فيها؛ قال تعالى: [الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ] (إبراهيم: ١)، وقال جل شأنه: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتبيّن لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (النحل: ٤٤)، وقال تعالى: [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] (النحل: ٨٩)، وقال كذلك: [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (الشورى: ٥٢).

إذًا هِيَ حاكميّة كتاب أنزله الله -جل شأنه- ينفذ الإنسان المستخلف أيًّا كان نسقه الحضاريّ أو نمطه الثقافيّ أو مجاله المعرفيّ مَا يأتي به من توجيهات لتحقيق الهدى وإظهار الحق والفصل بين الناس.

- **الفرق بين الحاكميّة الإلهيّة وحاكميّة الكتاب:**

في حاكميّة الكتاب الكريم يكون الإنسان مسئولا عن متطلبات ومستلزمات وتوفير سائر الضمانات التي تقتضيها القيم العامّة المشتركة بين البشر، قيم العدل والأمانة والهدى، فهو مطالب بأن يقرئ هذا القرآن الكريم قراءة منهجيّة تقوم على قراءته وقراءة الكون معه في منهج يجمع بينهما في قراءة جامعة موحدة لا ينفصل فيها أيّ منهما عن الآخر. ففي الوقت الّذي يقوم فيه بالتلاوة والتدبّر والتأمل يقوم فيه كذلك بالملاحظة والتتبع والتأمل والاستقراء لسنن الكون ويقوم العقل أو الفؤاد بالجمع بين مَا يتحصل عليه من المصدرين، الوحي المقروء والكون المنشور، ويدمج بينهما ويستخلص النتائج منهما بشكل منضبط فتستكمل القوانين الضابطة للحياة والقواعد المنهجيّة التي يمكن للإنسان أن يهتدي بها ويخرج الإنسان من دائرة التناقض والثنائيات، المتصارعة الناجمة عن تلك القراءات المنفردة، القراءات المبتسرة التي تجعله ممزقًا بين

الثنائيّات، والتي جعلت الإنسانيّة تضيع من عمرها وقتًا ليس بالقصير بين الأفكار المتناقضة؛ أفكار الجبر والقدر، وأفكار الخلط بين الفعل الإنسانيّ والفعل الإلهيّ وسوى ذلك، وحاكميّة الكتاب. وهذه حاكميّة تعززها وتقويها أبعاد كثيرة منها عموم الشريعة وشمولها وانطلاقها من النص القرآنيّ المحفوظ الَّذِي لا يمكن أن يحوّل إلى قراطيس يستقل بحفظها فريق من الناس ويجهلها الأكثرون، بل هُوَ كتاب مفتوح معلن يستطيع البشر أن يقرءوه وأن يتصلوا به، فلا يكون هناك مجال لتسلط فئة وسيطة باسم الحكم الإلهيّ على الناس لا لشيء إلا بحجة اطلاعهم أو اختصاصهم بمعرفة مَا ليس في مقدر الآخرين الوصول إليه.

كما أن حاكميّة الكتاب تحرر البشريّة وتخرجها من تسلط أي أحد باسم «**الحق الإلهيّ**» كما مر بالنسبة لكثير من الحضارات القديمة، وتعطي للإنسان قدرة مستمرة على تجديد الأحكام من خلال تعامل الأجيال القارئة مع القرآن الكريم، وتنظيم الحياة بشكل مرن واسع في إطار تلك القيم القرآنيّة المطلقة القادرة على استيعاب أي واقع إنسانيّ مهما كان، وبفهم إنسانيّ متجدد من حقه أن يكون مختلفًا من بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر مستفيدًا في كل الأحوال من الخبرات والتجارب، ومن منهجيّة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- في فهم القرآن الكريم والربط بين قيمة وبين الواقع، فكل هذه النعم وهذه المزايا هِيَ التي أشار إليها قول الله جل شأنه: [وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (الأعراف:١٥٦-١٥٧).

فالقرآن العظيم هُوَ الحاكم في هذه الأمّة التي أريد لها أن تكون أمّة وسطًا، وهو صاحب الحاكميّة في هذه الرسالة الخاتمة التي أريد لها أن تكون رسالة عالميّة، وأن ينضوي البشر، كل

البشر تحتها، وهنا نود أن ننقل عن الإمام الشاطبي من كتابه «**الاعتصام**» الجزء الثاني (ص ٣٣٨) قوله: «**فالشريعة -يعني بذلك القرآن الكريم- هِيَ الحاكمة على الإطلاق وعلى العموم، أي: على الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- وعلى جميع المكلفين، والكتاب الكريم هُوَ الهادي والوحي المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدى والخلق مهتدون بالجميع**»، ولما استنار قلبه أي الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- وجوارحه وباطنه وظاهره بنور الحق علمًا وعملا؛ صار هُوَ الهادي الأول لهذه الأمّة والمرشد الأعظم، حيث خصه الله تبارك وتعالى دون الخلق بإنزال ذلك النور المبين عليه واصطفاه من جملة من كان مثله في الخلقة البشريّة، اصطفاه أولا من جهة اختصاصه بالوحي الَّذِي استنار به قلبه وجوارحه فصار خُلُقه القرآن، وإنّما ذلك لأنه حكم الوحي على نفسه حتى صار في خُلُقه وعمله على وفقه أي على وفق الوحي وفق القرآن الكريم. فكان الوحي وواقفًا قائلا، والرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- مذعنًا ملبيًا نداءه واقفًا عند حكمه. وإذا كان كذلك أي أن الشريعة حاكمة للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- أو أن القرآن الكريم حاكم له، فسائر الخلق حريون أن تكون الشريعة حجة حاكمة عليهم. والشاطبي هنا -رحمه الله- يستعمل الشريعة بالمفهوم المرادف للقرآن الكريم كما كان يطلق على التوراة الشريعة في هذا الإطار.

- **الحاكميّة كمفهوم تحريضي:**

فكيف برزت المفاهيم والتطورات الأخيرة التي سادت فصائل العمل الإسلاميّ في كثير من أنحاء العالم والتي بدأت تعلن شعار «**الحاكميّة الإلهيّة**»، وتتوثّب إلى السلطة باسمها، وتؤكد أن الإسلام يقوم على هذه الفكرة أو يلتزم بهذا الاتجاه؟!

إن الحركات الإسلاميّة المعاصرة إنّما هِيَ حركات مثلت امتدادًا لحركات كفاح وجهاد سبقتها. تلك الحركات التي قادت عمليّات تحرير أقاليم الأمّة المسلمة المختلفة من الكافر المستعمر ومن عدوانه عليها، وقد أخذت تلك الحركات تستعمل كل مَا لدى الأمّة من قوى

وطاقات وقدرات، موظفة كل تراث الأمّة الفكري والثقافيّ في دفع الأمّة لنضال والكفاح ورص صفوفها لتتمكن من التغلب على أعدائها وتحرير أراضيها وإعادة سابق عزها ومجدها واستعادة موقعها في الوجود. ونجحت الأمّة في إخراج الكافر المستعمر، وتغيرت الوجوه وأقيمت حكومات عرفت بالحكومات الوطنية، وتحقق استقلال جل أو كل تلك البلدان التي سادها الاستعمار. وأخذ الاستقلال أشكالا مختلفة وتغيرت طبيعة العلاقات بين تلك الأقاليم والبلدان وبين سواها، ولكن فصائل العمل الإسلاميّ التي تعتبر امتدادًا لتلك الحركات الرائدة والقائدة التي قدمت جهودًا وتضحيّات كبيرة في سبيل الوصول إلى حالة التحرير من الآخر فوجئت بأن سائر الأهداف والشعارات التي استعملت في عمليّة تحريض الأمّة وإعادة الفاعليّة لها وتعبئتها وحشد طاقاها من أجل التحرير، قد أحبطت أو لم تتحقق بالشكل الَّذي كانت تأمل أن تتحقق عليه، فأصيبت بخيبة أمل أدت بها إلى أن تستأنف جهادها وكفاحها بأشكال مختلفة، ولأسباب وظروف بعضها تاريخيّ يتعلق بمواريث السلطة والحكم، وبعضها معاصر يتعلق بالفترة الاستعمارية وسيادة المفاهيم الغربية للدولة والحكم والسلطة والقوة سادت تصورات خاصّة لمفاهيم الدولة القوميّة أو الأقليّميّة ولمفاهيم السلطة. صيغت تلك المفاهيم وتلك العقول بعيدًا عن المؤثرات الفكريّة للتصور الإسلاميّ ومقوماته، وخصائصه الحقيقية.

وفي هذا الإطار أو الأجواء بدأت الحركات الإسلاميّة المعاصرة نضالها وكفاحها هذه المرة في إطار الداخل محاولة منها لتحقيق الأهداف التي مَا استشهد الآباء إلا من أجلها سواء في الجزائر، أو مصر أو الهند، أو العراق أو في أي بلد إسلاميّ، واعتبرت هذه الحركات أن أهداف الأمّة قد أحبطت هذه المرة على أيدي أناس من أبناء البلاد فكان لا بد من محاولة إعادة الفاعليّة إلى الأمّة من جديد، ورص صفوفها مرة أخرى لخوض جولة جديدة من نضال وكفاح يمكن أن يساعد على تحقيق هذه الأهداف الأساسيّة التي كانت قد وضعت لتحقيق وحدة الأمّة وتحريرها وتحقيق الاستقلال الثقافيّ والتشريعيّ وغير ذلك، فلجأت تلك الحركات إلى الرصد الفكريّ والثقافيّ لحركات الإسلام التي سبقتها لكي توظف ذلك الرصيد كلّه في عمليّات مختلفة، منها

عمليّات تستهدف التحريض وإعادة الفاعليّة. وأخرى تستهدف الدفع لإعادة التحرك، وثالثة تستهدف إيجاد القوى الفاعلة القادرة على إحداث التغيير باتجاه تلك الأهداف الكبرى التي لم يتحقق منها إلا نزر يسير، فكانت تلك الأنظمة البديلة والتي يقوم عليها أناس من أبناء البلدان المسلمة يتكلمون لغاتها وينتسبون إلى تلك الشعوب قد استبدلت كل تلك الأهداف بأهداف حداثية تستهدف مزيدًا من الالتصاق بمن كافحت الأجيال السابقة لكي تتخلص منه ومن سلطانه، فهناك تبعية في الاقتصاد وهناك تبعية ثقافيّة وفكريّة ومؤسّسية ونظميّة، وفي ظل تلك الأوضاع كان الدعاة يحاولون أن يستخدموا كل أسلحتهم التحريضيّة والبنائيّة منها فمما طرح أن هذه السلطات القائمة أو التي جاءت بديلة رغم تمتعها بالأسماء الإسلاميّة، وانتمائها الظاهريّ للأقاليم المسلمة التي تحكمها فإنها أنظمة جاهليّة مغتصبة لسلطة لا تستحقها؛ فتلك السلطة هِيَ سلطة إلهيّة، وذلك لأنّ الجماعات لم تستطع أن تقول: اغتصبت هذه الأنظمة سلطة هِيَ أولى بها أو هِيَ من يستحقها، فكان لا بد من إيجاد قيمة عليا أو شيء يمكن أن تتحرك الجماهير باتجاهه، ويرتبط بإيمانها وبمستوياتها المعرفيّة وقدراتها، فكان طرح أفكار «**الجاهليّة والحاكميّة**» من أهم الوسائل التي يمكن أن تحقق هذا الأمر.

بدأت هذه الحالة في الباكستان. والباكستان نموذج جيد للدراسة في هذا المجال. كبيئة برزت فيها على ألسن القيادات الإسلاميّة هناك وبخاصّة أبي الأعلى المودودي –رحمه الله- هذه الأفكار أفكار «**الجاهليّة**» و «**الحاكميّة**». فالباكستان كانت جزءًا من الهند الكبرى وكان المسلمون يعيشون في تلك البلدان قبل قرنين سادة وحكامًا للهند حتى جاء الغزو البريطاني، فحولهم إلى مجرد أقليّات مضطهدة تعاني شتى أنواع الاضطهاد الدينيّ والعرقي وايره، فاضطرت القيادات الإسلاميّة آنذاك أن تنادي بدولة مستقلة عن الهند، فكانت ولادة باكستان في إطار تصور لإقامة حكومة مسلمة تنصف المسلمين وتعيد لهم حرياتهم وتجعلهم قادرين على أن يعيشوا آمنين في دولة إسلاميّة مستقلة. وقامت الدولة بعد كل تلك التضحيات الجسام، فكأن المسلمين ضحوا في بادئ الأمر مع بقيّة الهنود لتحرير الهند من الاستعمار، ثم عندما لم تتحقق

آمالهم في إطار الاستقلال قاموا مرة أخرى بمحاولة التحرر من السلطة الوطنيّة التي قامت في الهند وإقامة دولة خاصّة بهم، وكل آمالهم أن تكون هذه الدولة إسلاميّة شرعيّة تتوافر لها كل مقومات الشرعيّة في إطار الإسلام. وقامت الدولة وإذا بها لا تختلف عن سواها دولة تحاول أن تكون دولة قوميّة في إطار سيادة هذه المفاهيم الغربيّة المعاصرة، وإذا بها تتنكر لوعودها للأمّة. وشعر قادة العمل الإسلاميّ هناك بما يشبه الخديعة فبدءوا عمليّة نضال ثالثة من أجل الوصول إلى الدولة التي كانوا يحلمون بإقامتها في إطار صراعهم وكفاحهم ونضالهم، وفي مجال تصحيح الأوضاع، طرحت مفاهيم الجاهليّة والحاكميّة الإلهيّة في هذا الإطار في وسط إسلاميّ.

إذا انتقلنا إلى جزء آخر من العالم الإسلاميّ شاع فيه هذا المفهوم وهو مصر نجد أن مصر قد مرت بظروف تختلف كثيرًا عن ظروف باكستان. ولكنها تتفق معها في بعض الجوانب. فالإسلاميّون هناك قد ساهموا في عمليّات الكفاح ضد المحتل في مختلف الأطوار، فكان لهم أثرهم في ثورة عرابي، وكانت لهم مساهماتهم في ثورة «سنة ١٩١٩»، وكانت لهم مساهماتهم في سائر الحركات النضاليّة، ومنها محاولة تحرير القنال، وتحرير مصر من سبعين ألفًا من الجنود البريطانيين الذين كانوا مرابطين حول قناة السويس وكان لهم فضلهم في ذلك، وساهموا في الحروب التي قامت للحيلولة دون قيام إسرائيل، أو لاستعادة فلسطين في حينها.

كانت كل هذه الجوانب النضاليّة في أذهانهم وكانوا يتوقعون أن الأمّة ستعترف لهم بحقهم وجهودهم وجهادهم في هذا السبيل. وحينما تحرك الجيش ليغير النظام الملكي كانوا هم الطليعة الشعبيّة والعسكريّة الموازية التي آزرت الجيش وأيدته في تحركه، وكان من المعروف في تلك المرحلة أنّه لولا تأييد الإخوان المسلمين ومناصرتهم ومؤازرتهم للعسكريين لما تحقق النصر ولما قام ذلك الانقلاب، ثم لم تمض أشهر قليلة وإذا بالانقلابيين يغيرون موقفهم من الإسلاميّين ويخسرون بوعودهم وعهودهم مرة أخرى، ويكتفون منها بشكليّات إسلاميّة اعتبروها كافية لإرضاء وإسكات الشارع الإسلاميّ الَّذِي كانوا يريدونه أن يستمر في استادهم تابعًا مؤيدًا لكل مَا يرسمونه من اتجاهات في مجال الحكم والسلطة، وسرعان مَا وقع الصدام، فإذا

بالانقلابيين يعاملون حلفاؤهم بالأمس من الإسلاميّين معاملة لهم تكن متوقعة بحال من الأحوال، اتسمت بكثير من العنف وضروب الاضطهاد.

وفي دوائر السجون والمعتقلات والتعذيب والإرهاب لم يجد الإسلاميّون هناك مرة أخرى إلا أن يوظفوا كل ذلك الرصيد الفكري والثقافيّ والمفاهيمي في عمليّات التحريض ضد نظام اعتبروه قد نكث عهوده ونكل عن عوده، وخان في مواثيقه، وخان قضيّة الأمّة أو لم يف لها بما كان يتوقع منه. فبدأت تلك الأفكار تطرح في إطار دراسات وكتابات بعضها قدمه الأستاذ عبد القادر عودة –رحمه الله- في إطار نقد الأوضاع القانونيّة والأوضاع السياسيّة، وبيان أنّها أوضاع غير إسلاميّة، ثم بدأ سيد قطب –رحمه الله- وهو الّذي اشتهر في تعزيز هذه المفاهيم بما له من قدرة فكريّة وكتابيّة متميزة، فطرحت في هذا الإطار أيضًا مفاهيم «**الجاهليّة**» وصفًا لأولئك الذين لم يحكموا بما أنزل الله تبارك وتعالى وساروا سيرة أخرى وانتهجوا نهجًا مغايرًا، فتعرض الشهيد سيد قطب –رحمه الله- إلى هذين المفهومين: «**مفهوم الجاهليّة ومفهوم الحاكميّة**» في كثير من كتاباته ودراساته. وقد شكل مفهوم «**الحاكميّة**» بالذات أحد أهم المفاهيم التي دارت حولها كتابات الأستاذ سيد قطب رحمه الله بعد فترة السجن واعتبر الحكام الذين تسلموا زمام الأمور في مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ بعد ثورات التحرير اعتبرهم قد أعطوا أنفسهم حق «**الحاكميّة**» الّذي هُوَ حق له جل شأنه لا يحق لبشر أن يبني شرعيّة حكمه إلا على أساس منه. وبلغ قمة اهتماماته وتحديده لهذا المفهوم في دراساته الأخيرة وبخاصّة «**معالم في الطريق**» و«**مقومات المجتمع الإسلاميّ**»، وأصبحت الشرعيّة السياسيّة لا يمكن أن تتحقق لأي حكومة إلا بناء على التزامها بحاكميّة الله جل شأنه وتشبثها بالمنهج الإلهيّ في الحكم، أمّا تفاصيل هذه الحاكميّة فلم يخض فيها رحمه الله ولم يتعرض إليها بذات الطريقة التفصيلية، لأنّه لم يكن يستهدف إلا إيقاظ الأمّة وإيجاد وعي لديها على أن أهدافها لم تتحقق على أيدي الحكام الوطنيين، وأنّها لا تزال رغم الاستقلال محكومة بما يخالف دينها وعقيدتها وتصورها الإسلاميّ.

وقد طور سيد قطب رحمه الله مفهوم «**الحاكميّة**» إلى درجة عاليّة في فكرة السياسيّ حتى أصبحت كلمة «**لا إله إلا الله**» تعني أن الحاكم الوحيد هُوَ الله جل شأنه وأن السلطة له، وهو رحمه الله لم يميز في هذا بين معنى «**حاكميّة الله**» في الحكم السياسيّ وبين حاكميته جل شأنه «**للحكم الكونيّ**» أو «**القضائيّ**»، بل فعل كما فعل المودودي حين جعل «**حاكميّة الله**» في مواجهة حاكميّة البشر المتناقضة والمتضاربة والمتعارضة مع عبوديّة الله جل شأنه وألوهيّة الله تبارك وتعالى للبشريّة، فكما ألغى المودودي أي دور للفرد أو الجماعة في الحاكميّة غير التلقي والتطبيق لاعتبار أن الله تبارك وتعالى وحده هُوَ الحاكم، كذلك فعل سيد قطب –رحمه الله- في هذا؛ وبذلك فهم هذا المفهوم لدى الآخرين بذات الشكل الَّذي كانت عليه فكرة الحاكميّة الإلهيّة في عهد موسى والتي فُهِمَ منها أن الله سبحانه وتعالى قد أقام مملكة خاصّة وضع لها قوانينها وكتبها بنفسه وهذه القوانين والسياسات جزء من الدين والإيمان والعقيدة لا يتجزأ، ولا تفريق بين مَا هُوَ دنيوي ولا هُوَ أخروي ولا مَا هُوَ مدنيّ ولا مَا هُوَ سواه إلى غير ذلك – من أمور- وقد فُهِمَ هذا الطرح بهذه الطريقة على الرغم من أن كثيرًا من الإسلاميّين حاولوا شرح مَا قاله المودودي وما ذهب إليه سيد قطب رحمه الله في هذا المجال، وبيان دور الإنسان في الفهم والتلقي ودوره في مجال الاجتهاد، ولكن أسقطت فكرة «**الحاكميّة الإلهيّة**»، كما كانت في تراث الحضارات السابقة وفي مقدمتها «**التراث اليهوديّ**» على هذا النحو الَّذي طرحه المودودي وسيد قطب عليهما رحمه الله، ولم تنفع كل تلك الشروح أو التحفظات في إيجاد فوارق في الفهم بين هذا وذاك، وبخاصّة بالنسبة للعقل الغربيّ الَّذي لا يزال على صلة بتراث التوراة والإنجيل، ولا يزال ينظر إلى تلك الفكرة على أنّها فكرة استلاب الناسوت لصالح اللاهوت، وهِيَ الفكرة التي يعتبر نفسه قد تحرر منها بعد نضال طويل، أسقط عليها كل تلك الصورة الشائهة وفهمها بهذا الشكل وفي الوقت نفسه فإن كثيرًا من الإسلاميّين سواء أكانوا شُراحًا لفكر الرجلين أو كانوا ذوي مبادرات خاصّة قد استنبطوا المفاهيم الشائعة عن الحكم والدولة وقيم السلطة والشريعة وهم يقرءون آيات الكتاب الحكيم وبخاصّة آيات سورة المائدة

وأحاديث الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- والواقع التاريخيّ ليسقطوا هذه المفاهيم المعاصرة على تلك النصوص وعلى ذلك الواقع. ومن هنا أصيب هذا المفهوم باضطراب شديد جعله في حاجة إلى كثير من عمليّات التحليل والتفكيك وإعادة التركيب لئلا يُساء فهم الإسلام كلّه من خلال إساءة فهم هذا المفهوم.

لقد تحول مفهوم «**الحاكميّة الإلهيّة**» بتلك الجهود والشروح التي بذلت من كتاب بعض الحركات الإسلاميّة إلى قرين للتوحيد، بحيث صارت تسقط عليه كل عناصر التوحيد أو مقومات العقيدة من ولاء وبراء وسواها، وتربط بها بشكل وثيق، وبذلك ساد نوع من سوء الفهم واضطراب الرؤية في داخل المجتمعات الإسلاميّة، وإضافة أسباب صراع وتمزق أخرى إلى أسباب الصراع والتمزق التي أنبتتها اتجاهات الحداثة والتحديث. من هنا تصبح عمليّة إعادة ترتيب الأوراق وتصحيح الأوضاع في هذا المجال أمرًا ضروريّا.

وقد كنت أود أن تكون هذه الدراسة المقدمة من أخينا الباحث الشاب هشام جعفر — جزاه الله خيرًا- قد استوفت هذه الأمور كلها وأتت بشيء يمكن أن يبنى عليه، لكن من الواضح أن أخانا الباحث وقد عاش أجواء المصادر والمراجع بعقليّة الباحث المحافظ استطاع أن يضعنا على أول الطريق، وأن يجمع لنا نصوصًا كثيرة في هذا السبيل لكي يؤكد بعد ذلك «**الحاكميّة الإلهيّة**» بمعنى حاكميّة الشرع التي عالجها الشاطبي، ومع أنّه قد استطاع أن يخفف من التصورات السائدة للحاكميّة، إلا أنّه لم يستطع أن يعطينا التصور الإسلاميّ البديل الّذي لا بد منه، ولذلك حينما جاء ليعالج موضوع السلطة تحدث عن السلطة الدينيّة، وأكد أنّه لم توجد هذه السلطة في الإسلام إلا لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأنه كانت له في حياته سلطتان: سلطة دينيّة باعتباره نبيًا مرسلا وسلطته كحاكم دنيوي، وكنت أود أن لا يسقط مفهوم السلطة المعاصر على ممارسات رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- لأنه -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يكن إلا رسولا نبيًا: [قُلْ إِنّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ

وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا] (الكهف: ١١٠)، ولم يشر -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- إلى أنّه ذو سلطة دينيّة أو دنيوية، ولم يميز بين الأمرين، فكيف يساغ إسقاط هذا المفهوم المعاصر للسلطة، بحيث تُقرأ به حياة وتصرفات رسول اله -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم يقول: وقد انعقد إجماع الأمّة على أن سلطة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- الدينيّة قد انتهت بموته ولم تنتقل لأحد بعده، وهذا هُوَ ختم النبوة، فإطلاق كلمة سلطة على النبوة وختم النبوة بهذا الشكل أمر آخر. وربما كان الأقرب أن تسمى «**ولاية**» فقد يكون ذلك هُوَ الأقرب إلى روح الإسلام. ويقول الباحث الفاضل: «**وما انتقل إلى الخلفاء من بعد موته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- محصور بصفته كحاكم دنيوي أو كرئيس دولة أو حكومة مدنيّة**». هذه أيضًا نقطة قد استدرج الباحث إليها تأثرًا بدراسات المحدثين وبعمليّات إسقاط المفاهيم المعاصرة على عصر النبوة أو على الواقع التاريخيّ الإسلاميّ في إطار مفاهيم معاصرة وتحليلها وتفكيكها وتركيبها، وهو ملحظ منهجيّ وإن كان الإمام القرافي قد فتح الباب إليه. فالرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- نبي رسول مارس مَا يمارسه في إطار النبوة والرسالة. وخلفاؤه من بعده في فترة الخلافة الراشدة إنّما كانوا خلفاء على منهاج النبوة مارسوا مَا مارسوا في هذا الإطار؛ أي: في إطار خلافة على منهاج النبوة خاصّة في خلافة الشيخين -رضي الله تعالى عنهما- والسنوات الأولى من خلافة سيدنا عثمان -رضي الله تعالى عنه- والمحاولات التي قام بها الإمام عليّ -رضي الله تعالى عنه- لإعادة الأمر إلى نصابه، وكذلك محاولات عمر بن عبد العزيز -رضي الله تعالى عنه- ، كل ذلك يندرج في إطار إيجاد خلافة على منهاج النبوة، ومنهاج النبوة حدّده القرآن الكريم ولا نملك أن ندخل عليه أيّ تعديل.

هذا الأمر لم يكن ليغيب عن أذهان الباحثين لولا شيوع هذه المفاهيم والخلط الَّذي جرى فيها. بل إن لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما رواه مسلم وغيره حديثًا شريفًا يعتبر موضحًا تمام التوضيح لهذه القضيّة، حيث قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- مخاطبًا بعض القادة:

«إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخسفوا ذممكم وذمم أصحابكم أهون عند الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا».

وكذلك خلفاؤه الذين كانوا على منهاجه. فكان عمر بن الخطاب مثلا وأبو بكر رضي الله عنهما كثيرًا مَا يصدرون كتاباهم بقولهم: هذا مَا رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - ، أو هذا مَا رأى خليفة رسول الله أَبُو بكر، أو هذا مَا أرى الله خليفة رسول الله، أو هذا مَا أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لكنهم لا ينسبون الأمر لله جل شأنه خوفًا من اللبس والغموض ولئلا يلتبس الأمر على المسلمين.

الخلاصة:

ولكي يوضع هذا المفهوم في نصابه ولا بد من التفكير في أمور قد تعتبر من البديهيّات، لكنها ضرورة في هذا المجال.

لقد جاء الإسلام عالميًّا رسالة وخطابًا منذ بدايته: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ] (سبأ:٢٨). وصفة العالميّة في الرسالة تحملها معنى كثير الأهميّة ألا وهو القدرة على استيعاب العالم كلّه ليجد في هذه الرسالة الآسيويّ والأفريقيّ والهنديّ والعربيّ والتركيّ والأوربيّ والأمريكيّ وسواهم مَا هم بحاجة إليه من هداية وقدرة على الوصول إلى الحق. فكيف يمكن لخطاب واحد أن يستوعب البشريّة بأكملها إن لم يكن هذا الخطاب قادرًا على استيعاب خصوصياتها وسائر أنماطها الثقافيّة ومناهجها المعرفيّة؟ ولقد وهم البعض في صفة الخطاب الإسلاميّ، وظن أنّه خطاب حصري عربيّ انطلاقًا من أمرين:

أولهما: أنّ القرآن الكريم عربيّ اللغة لا يفهمه غير العرب، حيث يعود من يقرأ إلى أصول اللغة العربيّة وقاموسها ومعجمها.

ثانيهما: أنّه –أي- القرآن الكريم مقيد بأسباب نزول تختص بالعرب وإلى أمثال هِيَ من بيئتهم، مثل قوله تعالى: [أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ] (الغاشية:١٧)، وإلى أعرافهم في التبني وتعدد الزوجات وإلى صراعاتهم مع بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، وإلى قصص أنبياء اقتصر ذكر من ذكر منهم على أنبياء مَا بين النيل والفرات والجزيرة العربيّة من دون العالم؛ لذلك قيل باختصاص الرسالة بالعرب، واختصاص خطاب القرآن الكريم بهم كذلك، وفسر الانتشار خارج الدائرة العربيّة بأنه قد تم بقوة الفتح والقتال. إنّنا ندرك جميعًا معنى قوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً] (سبأ:٢٨)، ولكن لأي مدى يمكن أن ندفع بهذه العالميّة وندحض منطلقات المنطق المعاكس التي تتلخص بالإضافة إلى مَا ذكرنا:

إن الكتاب الكريم عربيّ، وأنه مقيد إلى نسق بيئة عربيّة، وخطاب موجه إليها، وأنه مَا من نصوص محدودة يمكن أن تستوعب حركة البشريّة كلها، وأنه تنزل قبل أربعة عشر قرنًا، حيث حدثت من بعده تغيرات اجتماعيّة وتاريخيّة، وانتقل العالم بأكمله من الدورة الرعويّة الزراعية والاقتصاد الطبيعيّ إلى الدورة الصناعيّة والثورة الفيزيائيّة والتكنولوجيّة. إن صفة العالميّة كخاصية للقرآن الكريم تثير قضايا كبيرة جدًا على المستوى الموضوعيّ العام، وتفرض على العقل المسلم المعاصر أن يوضح جملة من الحقائق لكي يواجه ذلك المنطق الَّذِي اعتمد على تلك العناصر التي ذكرناها. وتحميل الخطاب الإسلاميّ المعاصر مسئوليّة معالجة المشكلات القوميّة التي يواجهها العرب حاليًا تكريس لتلك التصورات الخاطئة.

وكذلك تحميل الإسلام مسئوليّة معالجة وحل المشكلات الإقليميّة والبيئيّة وسائر مَا أصاب المسلمين نتيجة انحرافاتهم في ذلك –كله- ظلم للإسلام وأي ظلم!! قد يكون المسلمون وهم يواجهون أشرس المعارك وأضراها معذورين باستعمال كل مَا يتوافر لهم من أسلحة، ولكن

لا ينبغي أن يُحوّل الإسلام إلى وسيلة أو أداة من أدوات الصراع؛ لأنّه دين الله تبارك وتعالى ورسالته إلى البشريّة كلها، وينبغي أن تشاع خصائصه بين الناس كافة، وأهمها:

إنّ القرآن الكريم وإن تنزل بلغة عربيّة لفظًا إلا أنّه مطلق في معانيه ومحيط شامل مستوعب على مستوى كليّ للوجود الكونيّ وحركته وصيرورته بما في ذلك الأنساق الحضاريّة والمعرفيّة التي جاءت بعده.

إنّ علاقة القرآن الكريم ببيئة نزوله العربيّة هِيَ علاقة المطلق بالنسبي واللامحدود بالمحدود واللامقيد بالمقيد، وأن السنّة النبويّة قد قامت بدور المبين لمنهجيّة تعلق المطلق القرآنيّ بالواقع النسبيّ.

إن الخطاب القرآنيّ ليس نصوصًا محدودة ومتناهية على مستوى المعاني وتفرعاتها. وإن كان نصوصًا محدودة ومتناهية على مستوى اللفظ.

إن تنزله قبل أربعة عشر قرنًا تضمن خاصيتين: هيمنته وإحاطته بما سبق من الأزمنة، وقدرته على استيعاب مَا يليه من الأزمنة، فهو المصدق والمهيمن على مَا سبق، والمستوعب والمهيمن والمتجاوز لما لحق، إذًا فعالميّة الإسلام تبدأ من فهم خصائص الكتاب المتضمن لعالميّة الخطاب المستوعب، المتجاوز بذات الوقت لإشكاليّات كافة الأنساق الحضاريّة والمناهج المعرفيّة والإدراكيّة لا في الماضي فحسب، لكن في الحاضر والمستقبل أيضًا، لا للعرب والأمم المختلفة التي اعتنقته في فترة انطلاقه الأولى في شعوب العالم القديم من فرس وهنود وترك وسواهم ولكن لكافة البشريّة، إذا فُهم أنّه الحاكم المعادل للكون، غير أننا لا ننتظر اكتمال هذا الجهد الضروريّ دفعة واحدة، فخصائص العالميّة مع ظهورها في القرآن الكريم وفي صيرورة التاريخ الإسلاميّ، لكنها لم تتحول إلى منهج بعد أو محدّد منهاجيّ، ولكن العالميّة وختم النبوة وحاكميّة الكتاب خصائص يشد بعضها بعضًا وتدل كل خاصية على الأخرى إذا رتبت ذهنيًا ومعرفيًا بنحو سديد، يمكن ترتيبها بالشكل التالي:

أولا: ليكون الخطاب عالميًّا كان لا بد من «**ختم النبوة**»، وذلك لتوحيد المرجعيّة الإنسانيّة، فلا تتعدد النبوات التالية ويحدث النسخ والتعارض والاختلاف والتشرذم حول تلك النبوات، وليتحمّل الإنسان القارئ مسئولياته.

ثانيًا: لكي يكون الخطاب عالميًّا كان لا بد من تحرير القرآن الكريم من خصوصية بيئة النزول، وبهذا أمر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- وجبريل بأن يعاد ترتيب مواقع آيات القرآن الكريم وحيًا وتوفيقًا على يدي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- قبل التحاقه بالرفيق الأعلى ليتضح بذلك مَا هُوَ مطلق منه وما هُوَ نسبي.

ثالثًا: ليكون الخطاب القرآنيّ عالميًّا كان لا بد من نسخ الشرائع ذات الخصوصيّات الحصريّة لشعوب وقبائل محدّدة، وهِيَ شرائع إصر وأغلال لتستبدل بشرائع القرآن الكريم الكليّة التي تتفق مع حاجات المجتمعات العالميّة كافة، حيث تحمل قابليّة الشمول والعموم لتكون مشتركًا إنسانيًّا قابلا للتطبيق في سائر أرجاء العالم، وهِيَ شرائع تقوم على الحدود الدنيا القائمة على التخفيف والرحمة، وضبط حركة الإنسان في دائرة الأمانة والاستخلاف والعمران والابتلاء.

رابعًا: ليكون الخطاب عالميًّا كان لا بد أن تتضمن النصوص اللغويّة المحدودة معاني إطلاقيّة تكتشف عبر اكتشاف «**منهجيّة القرآن المعرفيّة**» ضمن «**وحدته البنائيّة**».

حين ننطلق من هذه المسلمات العقيديّة بوصفها فرضيّات علميّة موضوعيّة تؤكد في ترابطها على عالميّة الخطاب الإسلاميّ قد نكتشف أن قدرًا من هذه الخصائص القرآنيّة هُوَ من البديهيّات التي بين أيدينا، لكننا لم نلتفت قبلا إلى آثارها المنهجيّة مثل ختم النبوة، شرعة التخفيف والرحمة، حاكميّة الكتاب المطلق في معانيه البشريّة كلها وصيرورته مع الزمان والمكان، فالخطاب التاريخيّ في القرآن الكريم إذ يبدأ بالحالة العائليّة، فيذكر آدم: [وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

الظَّالِمِينَ] (البقرة:٣٥)، فإنه يتدرج ليخاطب حالة قبليّة أكثر اتساعًا من العائلة: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ] (البقرة: ٤٠)، ثم يمضي ليخاطب حالة قبليّة أيضًا أكثر اتساعًا من العائلة فيقول: [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عربيًا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ] (الشورى:٧). ويقول: [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ] (الشعراء:٢١٤)، ويقول: [وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ] (الزخرف:٤٤)، ثم يندرج بعد أن يخص قومه وعشيرته الأقربين في النذارة ليعم بها الخلق بعدهم، وليخاطب البشريّة كلها، وليخاطب حالة أمّة أكثر اتساعًا من القبيلة والقبيلة.

قال تعالى: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ] (الجمعة:٢)، أي: هم الأمم التي تحظ برسول أو نبي من قبل. وهنا ندع الإمام الشافعيّ –رحمه الله- يوضح ببيانه المتميز هذه الظاهرة حيث يقول الإمام الشافعيّ -رحمه الله- في الرسالة (ص ٨): بعثه –أي: رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- والناس صنفان: أحدهما: أهل كتاب بدلوا أحكامه وكفروا بالله تبارك وتعالى فافتعلوا كذبًا صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله تبارك وتعالى الَّذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم فقال: [وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (آل عمران:٧٨)، ويقول: [فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ] (البقرة:٧٩). وقال تبارك وتعالى: [وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {٣٠} اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ] (التوبة: ٣٠-٣١). وقال عز وجل: [أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا {٥١} أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا] (النساء:٥١-٥٢)، ثم انتقل إلى بيان الصنف الثاني فقال: وصنف كفروا بالله تبارك وتعالى فابتدعوا مَا لم يأذن به الله تبارك وتعالى ونصبوا بأيديهم حجارة وخشبًا مصورًا استحسنوها، ونبذوا أسماء افتعلوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير مَا عبدوا منها ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه فأولئك العرب، وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا وفي عبادة مَا استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره، فذكر الله تبارك وتعالى لنبيه جوابًا من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف فحكي جل ثناؤه عنهم قولهم: [وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ] (الزخرف:٢٣) إلى آخر مَا أوضحه عليه رحمه الله. لكن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى اتسع الخطاب الإلهيّ التاريخيّ من بعد العائلة والقبيلة والأمّة إلى الحالة العالميّة. فيترل عليه قول الله جل شأنه: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ] (التوبة:٣٣)، ومثل هذه الآية وردت في سورة (الصف:٩) [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] ، وفي سورة الفتح يقول سبحانه وتعالى: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا] (الفتح:٢٨)، فيتطابق التدرج الخطابي الإلهيّ التاريخيّ مع حالات التشريع المختلفة، فلكل حالة مميزاتها التشريعيّة الخاصّة، ولكل نبي من الأنبياء خواص معينة، ولكل جعل الله منهم شرعة ومنهاجًا.

ولذلك ينبهنا الله تعالى في سورة المائدة إلى الخصائص والمميزات التشريعيّة والمنهجيّة لا بد من ملاحظتها، فيقول جل شأنه: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] (المائدة:٤٨)، وهذا ينبهنا إلى ضرورة دراسة الشرائع الدينيّة بشكل مقارن يرتبط بمراحل أوضاع وأحوال البشريّة، وتدرج الخطاب الإلهيّ من الحالة العائلية إلى حالة الاصطفاد القوميّ إلى حالة الأميّة إلى الحالة الأخرى حالة الخطاب العالميّ الموجه للبشريّة كلها فحين ننتهي إلى هذا الخطاب الخاتم العالميّ نجده خطابًا يعتمد شرعة تخفيف ورحمة لكافة البشريّة شرعة نسخت شرائع الإصر والأغلال السابقة، وذلك ليكون في إمكان هذه الشريعة أن تستوعب العالم كلّه في إطار حد أدنى مشترك من القيم والمفاهيم قابل للتطبيق: [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (الأعراف:١٥٧).

إذًا فإن علينا أن ندرك أننا في الدائرة الإسلاميّة أمام خطاب إلهيّ يمضي متدرجًا ليتناول البشريّة كلها، وبالتالي فإن مفهوم «**الحاكميّة**» لا يمكن أن نعود فيه إلى مَا كان عليه في شريعة من قبلنا. فالمفهوم السائد «**للحاكميّة**» في عصرنا هذا وفي إطار الخلفية التي ذكرناها يمثل عمليّة إسقاط للمفاهيم التي شاعت بعد سيطرة الفكر الغربيّ والفكر المتعلق بالسلطة والشرعيّة والمشروعيّة والدولة القومية على الفكر الغربيّ والفكر المتعلق بالسلطة والشرعيّة والمشروعيّة والدولة القومية على آيات قرآنيّة كريمة انتزعت من سياقها، ولم يجر تدبّرها في إطار «**الوحدة البنائيّة للقرآن الكريم**»، وفي إطار دلالة عالميّة الخطاب، وختم النبوة، وحاكميّة الكتاب، حين نبحث عن هذا ضمن النسق التشريعيّ، فإن حاكميّة الكتاب تعطينا شيئًا آخرًا مختلفًا عن هذا. ففي حاكميّة الكتاب تبدو المسئوليّة الإنسانيّة في القراءة والفهم والتطبيق والتنزيل على الواقع واضحة. وفي «**الحاكميّة الإلهيّة**» المطلقة يبدو الإنسان هناك مجرد متلق عليه أن يأخذ كل مَا يعطي بقوة، فإذا تردد أو تأخر نتق الجبل فوقه كأنه ظلة أو أجبر على القبول بأيّة وسيلة أخرى.

في ظل «**الحاكميّة الإلهيّة**» المطلقة التي سادت في بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام هيمن الله رب الجنود فيها على البر، فأقام مملكة وهيمن على ظواهر الطبيعة كذلك هيمنة مباشرة وخارج القانون الطبيعيّ تمامًا. أمّا في «**الحاكميّة القرآنيّة**» فلم يكن الأمر بهذا الشكل، بل هُوَ كتاب منزل يشتمل على قيم عامّة مشتركة على الإنسان أن يحسن قراءتها وتلاوتها وتدبّرها وفهمها ثم تطبيقها.

فالحاكميّة هنا حاكميّة الكتاب تجعل الحاكميّة أشبه مَا تكون بأدوار مشتركة بين الكتاب الإلهيّ وبين قارئيه من البشر، ولكل منهما دوره بوعي الإنسان وقوى وعيه.

«إن الله ليترع بالسلطان مَا لا يترع بالقرآن»، وهنا لا بد من قراءة للقرآن، فكأن الحاكميّة حاكميّة بشريّة تجري في إطار قراءة كتاب إلهيّ مطلق ينفذ الإنسان المستخلف تعاليمه أيًّا كان نسقه الحضاريّ ونمطه الثقافيّ ومجاله المعرفيّ. وبالتالي حين تفهم الحاكميّة في إطار هذا التدرج التاريخيّ من حاكميّة إلهيّة مطلقة في بني إسرائيل إلى حاكميّة استخلاف لبعض أنبيائهم إلى ملك قام فيهم إلى حاكميّة كتاب يقرأه البشر وينفذون هدايته، فإن هذا سوف يساعد على إزالة ذلك اللبس وذلك الغموض الَّذِي ساهم الصراع والسجال كثيرًا فيه، وكذلك عمليّة الإسقاط المشترك. فلو تمكن فكرنا الإسلاميّ من اكتشاف هذه الآفاق فإنه إن شاء الله لن يكون فكرًا سكونيًّا يدور في حلقات الواقع التاريخيّ، ويعجز عن حل مشكلاته التي يتعلق بعضها بمفاهيم التشريع ومعاني السلطة والمجتمع وعلاقة النص القرآنيّ بالمتغيرات الاجتماعيّة والتاريخيّة ومفاهيم الإطلاق في القرآن الكريم ومفاهيم التغيير والجماعة والأمّة والتقليد والاتّباع والتجديد والتجدد.

وهنا ستعطينا إعادة قراءة النص القرآنيّ في إطار هذا الفهم كثيرًا من الحلول لمشكلات نشعر –الآن- بالعجز عن حلها أو معالجتها ويستطيع المسلم المعاصر أن يستدرك مسئوليّة الأمانة والابتلاء المنوطة بالإنسان القادر على القراءة والتلاوة والتدبّر باسم الله الَّذِي خلق، ومع

الله تبارك وتعالى الأكرم الَّذِي علم بالقلم علم الإنسان مَا لم يعلم ليقوم بالعمران، ويحقق غاية الحق جل شأنه من الخلق.